من تراب الطريق! (٢٥١) صفعة فى الصميم ! (*)

تلقى الأمريكان والغربيون بعامة، المتنادون بحرية وحقوق الإنسان، صفعة فى الصميم هذه الأيام، حيث ذاع أمر المحاولات التبشيرية المحمومة لتنصير جدة الرئيس الأمريكى " باراك أوباما " ..أشارت التقارير الإخبارية إلى وجود بعض المحاولات لتحويل " سارة أوباما " (٨٧) عاماً من الإسلام إلى المسيحية، وذكرت صحيفة " ديلى ناشون " - فيما نقلته صحف مصرية - أن محاولة تعميد الجدة العجوز التى قاربت العقد المئوى، جرت خلال أحد الاحتفالات فى مدينة كيزوما غربى البلاد فى كينيا، وأن المحاولة باءت بالفشل، بعد أن أمضى بعض المبشرين عطلة نهاية الأسبوع قبل الماضى لدى الجدة " سارة أوباما " فى قرية " كوجيلو " بهدف إقناعها بقبول التعميد .

لست أريد أن أتوقف عند احتجاجات العديدين من أفراد أسرة " سارة " على هذه المحاولات، ولا عند ما أعرب عنه مجلس الأئمة فى كينيا من غضب لهذه المحاولات التى انتقدها بشدة وطلبه من الحكومة التدخل لتجنب حدوث توترات أو احتقانات لأسباب دينية، وقيل إن المجلس أصدر بيانا أكد فيه أن المسلمين لن يجلسوا مكتوفى الأيدى إزاء هذه المحاولات التبشيرية لإرغام مسلمة على التحول للمسيحية !

ما يعنينى أن عدوى فصام الفعل عن الكلمة - باتت فيما يبدو متفشية، ضربت فى العالم كله، وطالت الغرب الذى يتشدق بحرية التدين ضمن ما

(*) المال ٢٠٠٩/٤/٢٩

يتنادى به من حقوق الإنسان، وصار الشعار السائد هناك هو السائد هنا : " قل مايعجب الناس واصنع ما شئت " !.

ذكرتنى هذه المحاولة الغبية بما دار من شائعات وأقاويل وتفسيرات حول حادث مصرع الأميرة ديانا زوجة ولى العهد البريطانى، وما قيل وقتها من أن الحادث اغتيال لتفادى أو لتدارك حمل الأميرة البريطانية من رجل مسلم، وما سوف يولده ذلك من مفارقة فى أبناء ولى العهد البريطانى، وربما ملك بريطانيا قريبا، يدين بعضهم بالمسيحية ويدين آخر بالإسلام .

ولو كانت الكلمات والشعارات صادقة، لما صارت هذه الحساسيات فى أمريكا أو الغرب، فالدين معتقد شخصى نابع عن إرادة حرة ورؤية مختارة، لا يمس ولا ينبغى أن يمس " المواطنة " وحقوقها، وكنا نعبر عن ذلك فى مصر - قبل أن تلحقنا بارومة الاحتقانات بأن : " الدين لله والوطن للجميع " .

من الغريب إزاء الفصام الغربى أن " التدين " ليس حاضراً فى الحياة الاجتماعية هناك كحضوره هنا، ومع ذلك لم تتحول الشعارات حول حرية العقيدة وحقوق الإنسان إلى واقع حقيقى يحترم هذا الحق فى جميع الأحوال، فلم تحتمل النظرة " الاستعلائية " الغربية أن تكون جدة الرئيس الأمريكى مسلمة، أو أن يكون أخ ولى العهد أو ملك بريطانيا المقبل - مسلماً .. واستخدامى تعبير " الاستعلاء " أتى قصداً لا عفواً .. فما دام التدين لم يعد حاضراً الحضور الساخن فى الغرب، فإن " الاستعلاء " يغدو هو التفسير الوحيد لوجود هذا الموقف من الإسلام والمسلمين !

لقد شفّت الرسوم المسيئة إلى رسول الإسلام عليه السلام، التى انطلقت من الدانمارك وعمت بلداناً غربية أخرى - شفّت عن هذه الروح التى لا يمكن أن تكون نابعة عن احترام حقيقى لحرية العقيدة وحق التدين واحترام الأديان كافة !

بل وقد شفّت وغيرها من المواقف الأمريكية وبعض المواقف الغربية، عن موقف من الإسلام والمسلمين مزج بين " الاستعلاء" و " العـداء " .. والخطر الأكبر فى هذه المواقف أنها نابعة عن رؤية مريضة ضـريرة لا تتسق مع الحرية ولا مع المنطق .. فلن يزيد المسيحية أن يتحـول إليهـا مسلم، مثلما لن ينتقص من الإسلام أن يتحول عنه مسلم، فالدينان يمـلآن الدنيا بمئات الملايين فى كافة القارات وشتى بلدان الأرض .. قيمة كل من الدينين فيه، ومعتقداته وتعاليمه ستبقى فى منظومته مهما انتقل واحد مـن هناك أو إلى هناك، ولو فهم الناس هذه الحقيقة، وفهمناها هنا أيضا بعد أن عمّت الاحتقانات، لأدركنا أن الحساسيات عمياء ضريرة، وأنها عارية من الفهم والمنطق، ولتوقفنا عن التباهى المعلن أو المستتر بأنه قد انتقل إلـى هذا الدين أو ذاك بعض من هناك، ولتعاملنا مع حرية العقيدة بقدر أكبر من الفهم والسماحة، ولقبلنا من الآخر أن يعبد الله بما يرى عبادته بـه، مثلمـا نعطى أنفسنا الحق فى أن نعبد الله تعالى كما نراه نحن !

كان ظنى أن المشكلة ضاربة هنا فقط، إلى أن داهمتنـى المحـاولات الحمقاء التى جرت مع " سارة " صاحبة الـ (٨٧) عاما، وجدة الـرئيس الأمريكى ! .. إن " باراك أوباما " لم يفز بأغلبيـة أصـوات النـاخبين الأمريكيين لأنه مسيحى، ولم يخسر الانتخابات لكونه من أصول مـسلمة، ولكنه كسب بمجمل صفاته وقدراته التى لمّ بها شمل الحزب الـديمقراطى قبل أن يجمع بها أيضا أغلبية أصوات الناخبين الأمـريكيين جمهـوريين وديمقراطيين ومستقلين ..

لو فهم الناس ذلك، هناك وهنا، لتركوا التعصب الـضرير، واحترمـوا حرية العقيدة للغير كما للنفس، ولعمّت السماحة واستطاع الناس أن يرتفعوا إلى قيم الإنسانية بعيدا عن "أبقاق" الكلام وعن الشعارات !!